مركز طارق والي العمارة والتراث
2019

الأرضية المشتركة للثقافة المعمارية .. تجربة مصرية

نص مشاركة د. طارق والي
في جناح الأرضية المشتركة للثقافة المعمارية
بينالي فينيسيا الثالث عشر للعمارة
29 أغسطس - 25 نوفمبر 2012

نشر على
الموقع الرسمي لـ
مركز طارق والي العمارة والتراث
في 10 يوليو 2019

© جميع الحقوق محفوظة

الأرضية المشتركة للثقافة المعمارية .. تجربة مصرية

البدايـــــة..

إن قـدرة الانسـان علـى البنـاء الإدراكـي فـي خيالـه تتخطـى الوجـود المـادي لمكان بذاتـه، وتتعـدى معـه اسـتيعاب الانسـان لمحدوديـة المـكان فـي لحظـة معينـة، بـل تتغيـر عمليـة ميـلاد التشـكيل الفراغـي لعمـارة المـكان تبعـاً ومتغيـرات إدراكات الانسـان وتفاعلاتـه وإسـتيعاباته المتفاوتـة.. ويبقـى الثابـت ليـس هـذا التواجـد الملمـوس بـالإدراكات الحسـية، ولكنهـا تلـك الانسـاق والقوانيـن المنظمـة لديناميكيـة المتغيـر بذاتيـة المـكان أو بفعـل الانسـان.. تلـك المنظومـات هـي الثوابـت المشـتركة التـي تضمـن تواتـر ميـلاد عمـارة المـكان وتجددهـا مـع مـرور الزمـان.

تتغيـر الرؤيـة بتتابـع الزمـن وتعاقـب الأحـداث بـل وتغيـر الحالـة النفسـية للإنسـان نفسـه، أو باختـلاف الشـخوص المتفاعلـة أو المسـتقبلة لعمـارة المـكان والرسـالة التـي تحملهـا؛ قـد تبـدو اسـتنباطات منفـردة وذاتيـة ولكنهـا بجوهرهـا تحمـل الجمعيـة المشـتركة لوجـود الفـرد، كمـا إنهـا تتيـح الإمكانيـة المسـتمرة لإعـادة أبـداع وجـود مـادي مغايـر ومتجـدد فـي كل لحظـة ومـع كل تجربـة إبداعيـة جديـدة. وهـذا مـا يترجمـه بينالـي فينسـيا للعمـارة فـي دوراتـه المتتاليـة مـن تجربـة مكانيـة للحـوار بيـن ثقافـات تحمـل تجـارب مختلفـة متقاربـة أو متناقضـة فـي مظهرهـا ولكنهـا دومـاً متفاعلـة حـول أرضيـة مشـتركة تمثـل حالـة للثقافـة المعماريـة فـي بعدهـا الانسـاني.. إن البينالـي فـي هـذا الإطـار ومـا يضمـه مـن رسـائل حضاريـة وثقافيـة يقـدم صـورة جديـدة وتجربـة مكانيـة فريدةمعكلدورة.

تسـتمد المتغيـرات حيويتهـا مـن الثوابـت، فالمتغيـر هـو المنتـج المـادي الملمـوس بأشـكاله المختلفـة والثابـت هـو المنظومـة المقننـة لإخـراج المنتـج؛ ومـا بيـن الثابـت والمتغيـر ينشـط إبـداع الانسـان حسـب قدرتـه الإبداعيـة، وهـي تسـتحدث مـن تلقـاء نفسـها إذا تحققـت لهـا الموائمـة الفكريـة والثقافـة المناسـبة، والتـي تتولـد عنهـا بكيفيـة مجـردة القيمـة تحقـق إمكانيـة التحـاور والتبـادل لبنـاء قواعـد مشـتركة فكريـاً ومهنيـاً وإنسـانياً فـي مسـاحة حدوديـة ولا حدوديـة، محـددة ولكـن ديناميكيـة.. وهنـا فينيسـيا المـكان نقطـة ثابتـة معلومـة علـى الأرض ولكـن حالـة تأثيرهـا المشـع متغيـر بشـكل دوري، هـي حقيقـة موجـودة ولكنهـا نسـبية التأثيـر تعتمـد علـى حـدث البينالـي وهـو المتغيـر، كمـا أنهـا تعتمـد علـى المشـارك والمتلقـي وهمـا متغيـران، تتغيـر الأحـداث والشـخوص والقضايـا وتبقـى لـكل ثقافـة وتـد ثابـت تقـف عليـه لبدايـة حـوار جديـد متجـدد، ومنهـا الحالـة المصريـة. إنهـا ثقافـة جمعيـة تتوارثهـا الأجيـال بحكـم الممارسـة ويجردهـا المبدعـون فـي حالـة نمـو وتطـور وديمومـة حيويـة تضمـن لهـا دائمـا الاسـتمرارية والقـدرة الذاتيـة علـى التخاطـب مـع الأخـر.

المنظومات المقننة للمتغيرات..

إن القيمـة الباطنيـة للعمليـة الابداعيـة هـي المعيـار الجـذري لوجـود الحيـاة والـروح فـي الانسـان والمجتمـع ، وايضـا فـي عمارتـه وفـي ثقافتـه و فـي الحضـارة عامـة ، وعمليـة البحـث والكشـف عـن هـذا الجوهـر هـي فـي حقيقتهـا اكتشـاف متجـدد عـن الشـخصية المحليـة للمجتمـع فـي صورهـا المختلفـة ، ولتحديـد هـذه القيمـة المنظومـة فـي كيانـات إبداعيـة ماديـة وفـي مقدمتهـا العمـارة لابـد أن نـدرك أن لـكل بيئـة وثقافـة مكانيـة شـخصية تتشـكل منهـا تلـك المنظومـات ، ومـن هـذه البيئـات الحالـة المصريـة التـي تشـكلت حضارتهـا فـي مراحلهـا المتنوعـة والمتتابعـة حـول هـذه القيمـة وقامـت علـى تلـك المنظومـة القيميـة .

إن تلـك المنظومـات فـي المطلـق هـي خريطـة خفيـة لقواعـد المضمـون، يكتشـفها الانسـان المتسـق مـع فطرتـه، فهـي تكوينـات إيقاعيـة متتابعـة تنتـج تركيبـات حواسـية لا نهائيـة، مثـل النوتـة الموسـيقية وتناغـم المقامـات فتتولـد سـيمفونيات أو معزوفـات شـرقية متنوعـة ومختلفـة؛ أو مثـل توظيفـات الكلمـة فـي أبيـات الشـعر، حيـث تكـون الكلمـة هـي الجـزء والـكل فـي ذات الوقـت مثـل النغمـة والحـرف.. فأسـاس المنظومـات كمفـردات هـي لغـة للموسـيقى والشـعر والمـكان ، جميعهـا يولـد علـى أرضيـة مشـتركة ، والديناميكيـة هـي السـمة السـائدة لتتواصـل تلـك الإبداعـات مـع المتلقـي علـى الرغـم مـن تغيـر المحتـوى ، وتبقـى مهنيـة المعمـاري الكشـف عـن تلـك القواعـد والمنظومـات والاعتمـاد عليهـا فـي صياغـة إبداعاتـه المتجـددة ، لغـة حـوار للتواصـل مـع

الآخر ، إيحاءات خافتة لمضمون المكان الذي يحمل ما هو كان وما هو كائن الآن ، وكل ما سوف يكون مستقبلاً في ذلك المحتوى المنظومي ، فالزمان يمضي تاركاً خلفه وقائع وأحداث ، وإن كانت غير مرئية ولكنها منحوتة في الخريطة العقلية لكل انسان متلقي .

إن العملية الإبداعية في الحالة المصرية خاصة وفي الحالة الانسانية المطلقة عامة، والتي تنتج عمارة مكان بعينه، هي ولادة مرتبطة بحالة تناغم مع كونية هذا المكان. مرحلة ولادة هي لا زمنية، لا بداية لها وليس لنهايتها وجود أو حدود.. تتكون في إطار متتابع لمراحل محددة تبدأ بحلم ورؤية الانسان، ثم منظومة مقننة للعملية الإبداعية، وتنتهي بتصميم. أما الحلم والرؤية فهي تجربة افتراضية تحمل طموحات وتوقعات شتى ناتجة عن ردود أفعال مسبقة، فكرة في فضاء تتبلور وتتشكل كلما زاد التأمل وكثرت لحظات أحلام اليقظة. فننتقل ما بين مرحلة الحلم وهو لا زمني إلى مرحلة الرؤية الأكثر وضوحا لمكان بعينه مرتبط بلحظة زمنية ما. وقبل أن تترجم تلك إلى حالة مادية ملموسة، قد تتبلور الفكرة الإبداعية من خلال لغة المنظومات المقننة للإبداع، فهي حلقة وصل المكان بالزمان، فتقنن الإبداعات والرؤى الفكرية إلى منظومة نسقية قانونية، وتملئ الفراغ ما بين الروحاني والملموس. فتصبح عملية التصميم من ذلك المنطلق تطور لإسقاطات الرؤية المسبقة إلى قوانين منظومة تتخذ بعد زمني معلوم، وعندها قد تتغير التصميمات حسب الحالة النفسية والإدراكية للمعماري المبدع أو تبعاً للظروف المحيطة بالحدث أو زمانه.

ميـــــلاد المكان..

الولادة المكانية أو الانفصال عن الفراغ المطلق يبدأ بنقطة هي بداية لكل ما هو مفترض، ففي البدء كانت النقطة، تكونت من اللا شيء وكل شيء، فهي الجزئية المجردة التي تكون الكل المفعم بالحياة. فوجودها هو ما يطلق شرارة بداية صور الطاقة الأولية لوجود المكان. تلك النقطة قد تكون ميتافيزيقية لا ملموسة أو معلومة على أرض، فالموقع التجريدي للمكان هو مبنى على نقطة. وتتابع الخطوات من مرحلة اكتشاف البعد المكاني ثم بعد ذلك مرحلة معرفة النقطة، ثم البحث عن المقومات الغير مرئية، ثم امتداد منطقي للنقطة إلى خط، من الثبات للحركة لتولد تركيبات مستنتجة من الفراغ، وأخيراً اكتمال حلقة المنظومة أو القانون.. فتكون النوتة الموسيقية لمعزوفة المعماري حسب المقامات المنظمة لها ولنغماتها.. وما ينتج عن الرؤية وقانون المنظومة هو التصميم الذي يتأثر بالعنصر التقني والمادي ففي تلك المرحلة تبدأ محاولات الوصول إلى إمكانات المادة الفيزيائية وفكرة مدى موائمتها على الأرض. إنها في الحالة المصرية خاصة والإنسانية عامة ثقافة جمعية تتوارثها الأجيال بحكم الممارسة أحياناً، ويجددها المبدعون في حالة نمو وتطور وديمومة حيوية تحقق لها الاستمرارية والقدرة الذاتية على التخاطب مع الآخرين.. وتبقى مهنية المعماري الكشف عن تلك القواعد والمنظومات والاعتماد عليها في صياغته وإبداعاته المتجددة عندئذ يمكنه صياغة اللغة المشتركة والقانون الذاتي لمواجهة عمليات التصميم والبناء المتغيرة.

هكذا فالمكان يحوي المنظومة والإنسان هو القارئ، قد تكون الرسالة بلا مضمون وتلك السمة السائدة الآن، وأحيانا أخرى القارئ ليس بملم، في كل الحالات التفاعلات قائمة مع نسبية التأثير، وفى بعض الحالات قد يولد التأثير مقطوعات حسية صامتة تتناغم مع إيقاعات إنسان بعينه لتشكل لحظة الإدراك الوجودي، حيث يصبح الإنسان من صميم المكان ويبقى المكان جزء من ذاكرته حتى بعد انقضاء التجربة ومغادرة المكان، وهنا يأخذ المكان بعد مغاير عن واقعه لتتشكل جزيئاته في أبعاد عقلية وصور حواسية شديدة الخصوصية عند الإنسان.

وقد تكون التجربة المكانية منقولة من حكايات السابقين المقروءة ـ المسجلة، أو تجارب المعاصرين عن مكان ما، تلك تجسيمات مباشرة لتخيلات مكانية متبادلة؛ محاكاة افتراضية لعملية تفاعل الحواس فتنشغل الحواس في نسج خيوط ذاكرة تشكل منظومة مساحية لتتحول مصفوفات الكلمات إلى جدران ولدت من انطباعات الحواس. وقد يوضح ذلك مدى عبقرية واتساع المفاهيم المختلفة للكلمة، حتى إذا توحدت كلمات وصف المكان فإن إسقاط المعنى على العقل يختلف كل الاختلاف من شخص لآخر فالكلمات قد تحتمل العديد من المعاني حسب الشخص المستقبل؛ والمكان في حد ذاته مثل الكلمات يتسم بالمرونة أيضا في احتواء المتغيرات، تلك أمور حتمية ولكن قدرة الانسان للتوافق مع متغيرات المكان

تكون في أكثرية الحالات جدلية ونسبية. فالمتغيرات قد لا تعنى دائما مدخلات مادية للمكان ولكن عامل الوقت قد يؤدى إلى تدرج الظاهرة الحسية، أما في حالة تجدد المكان أو إضفاء بعض المدخلات الجديدة عليه، فدائما يوجد حوار بين الثوابت والمتغيرات المكانية.. فعند إعادة رؤية المكان قد تواجهنا جدلية التجربة الجديدة مع السابقة ، أيهما سيستحوذ على الصورة المرجعية الذاكرتية في المستقبل أيهما سيحدث التأثير الأعمق لظلاله المكانية على الذاكرة الانسانية للمتلقي ؛ وقد يظن البعض أنها تؤدى باختلال التوازن الحسي وفقدان الانسجام وينتج عنه تشتت ، فالعملية تعتمد بالأخص على مهنية المصمم وبراعته في الحفاظ على توائم المدخلات مع ثوابت المكان من منظوماته المقننة لوجوده ، وعلى الجانب الأخر ديناميكية التقبل العقلي للشخص واستعدادية جهازه الحواسي لبناء الصورة الذهنية الخاصة به لتبقى الخيط الرفيع للتواصل على الأرضية المشتركة .

هكذا فإن التجربة المكانية تعتمد على التقبل العقلي، وما يؤثر علينا كبشر في منهج التقبل هو مدى اتساع أعماق العقل في الرؤية والقدرة على بناء أبعاد تجربة مكانية جديدة، تقوم على اتصال الحواس بكينونة المكان ومتغيراته وثوابته. فيحمل الإنسان ترسبات انطباعات مكانية منحوتة في مساحات عقلية مرتبة يستطيع البناء عليها أو استخدامها كمرجع في تجارب لاحقه، أحيانا قد تزيد وعيه في محيطه المؤقت أو قد يعلو بسقف التوقعات لينتج حالة تناغمية أو انتقادية للمكان أو حتى حالة من الرفض..

الأرضية المشتركة للثقافة المعمارية..

مع الرحلة المتكررة إلى مكان بذاته مثل بينالي فينسيا ودوراته المتتابعة بمحاورها وقضاياها المختلفة، تتشارك مجموعة من الثقافات على مبادئ فلسفية متعارفة لبدء حوار مفتوح، هو ليس حوار مباشر كلامي ولكنه أعمق من مفردات الكلمات فهو حالة تأثيرية ثرية بالتفاعلات المباشرة. وتأتي الحالة المصرية المشاركة والفاعلة والمتفاعلة في هذا الحوار، في خضم تلك الرحلة المليئة بالتفاعلات الحسية، تأخذك قدمك إلى ما بعد الجسر ما وراء الفاصل المائي إلى جناح مصر، المكان الذي يحمل بوجوده مسئولية أن يلقي بكلماته مرسلاً ومستقبلاً، يعبر الزائر والمشارك والمحاور إلى الحالة المصرية وجناحها حيث يتملكه الجزء المسيطر في العقل الباطن للذاكرة، فمن المفترض أن يشعر بوجودها بدون أي صخب، ولكنه الحوار ...

طارق والي